العرب والغرب

أعتـز بإسلامي، وأتشرف بإيماني، فديني فوق كل اعتبار ومقارنات، لكن أريد أن أقارن بين العرب وبين الغرب في عالم الدنيا، فالغرب أنجز في عالم السياسة والاقتصاد والصناعة والعمل والإنتاج آلاف الأضعاف مما أنتج العرب المعاصرون، إذا افتتح الغرب مصنعاً افتتح العرب قناة فضائية عابثة، وإذا اكتشف الغرب دواءً أو محركاً أو صناعة، اكتشـف العـرب أغنية أو لعبـة أو هوايـة، إذا أقام الغـرب جامعة للإبـداع والاختراع والاحترام، أقام العرب مهرجاناً للقبيلة، وإذا سافر الغرب إلى المريخ وعطارد والزهرة، سافر العرب إلى رحلة بريّة؛ لصيد الأرانب والغزلان والضبان، وإذا عقد الغرب برلماناً لمدارسة شئونهم وعلاج أخطائهـم، عقد العرب محاكمة للضمير والقلم الحر والرأي، وإذا أنتج الغرب دبابةً وصاروخاً وطائرة، أنتج العرب ملهى وبوفيه ومرقصاً، وإذا توسع الغرب في المحيطات وعبر القارات للاستيلاء على الثروات وأخذ الخيرات، توسع العرب في أراضي جيرانهم ومزارع إخوانهم، وسلبوا حقوق عشيرتهم.

عنـد الغـرب مزايـن أف 16، ومزايـن الكونكـورد سابقة الصـوت، ومزاين الميرسدس، ومزايـن اللكزس، ومزاين حاملات الطائـرات وقاذفات الصواريخ، وعنـد العرب مزاين الإبل، ومزاين البقر، ومزاين الغنم، ومزاين الغواني، الغرب يأخذ من العرب خام الحديـد فينتجه مصفّحة ومدفعاً وقذيفة ورشاشاً، والغرب يأخذ من العرب خـام الخشب فيصنعه ماسة وكرسياً وباباً ونافذة ودولاباً ويبيعه علـى العرب، والغرب يأخذ مـن العرب الحجارة فينتجها رخامـاً وبلاطاً ومرمراً ويوردها على العرب بأضعاف الأثمان، إذا تقاعد العربي أُصيب بالوسواس والهذيان والإسهـال والسمنـة والضغـط والسكـري والجلطة من الفـراغ القاتـل والإهمال المميـت، وإذا تقاعد الغربي كُـرّم ومُنح الجوائز التقديريـة والشهادات الفخرية، واستُفيد من تجاربه وخبراته، مع الغربي في سيارته كتاب ودفتر وقلم وآلة تسجيل وتصوير، لتقييد وحفظ المعلومات والأفكار، وعند العربي في سيارته هراوة وكرباج

وسلة حلويات وزنبيل فواكه ومرطبات، يصنع الغرب الباص والقطار والحراثة والثلاجة والسخانة، وينتج العرب صحافاً من العيدان، وأقداحاً من الخشب، وفؤوساً وخناجر وقدوراً من النحاس باسم التراث الشعبي المجيد، الغربي يقرأ في الطائرة والسيارة والأتوبيس والحديقة، والعربي يسولف في الطائرة، ويرقص في الميدان، ويسهر مع الشلة، ويسمر مع الأصحاب، ويغني مع الأحباب.

أخذ العرب من الغرب البنز والجنز والقبّعة والبيتزا والهنبرقر وقصّة الشَّعر والكرفتّا، وأخذ الغرب من العرب تراث الأجداد من المعرفة والإبداع والعلوم، وأخذ العرب من الغرب الأكل بالشوكة والملعقة وبعض الكلمات، وأخذ الغرب من العرب النفط والغاز والمعادن والأخشاب والآثار والمخطوطات، وليت الغرب أخذ من العرب الإيمان والقرآن وسنة ولد عدنان، وليت العرب أخذ من الغرب العمل والجد والمثابرة والصناعة والإبداع.

إذا عقد العرب قمة فضجيج وصجيج وهراش وهواش، ثم يخرجون بلا قرارات. وإذا عقد الغرب قمة فصمت وهدوء، ولياقة واحترام، ثم قرارات قاطعة تهز العالم، العرب يتحدون العالم بأجمل أغنية، وأفضل لاعب، وأروع موسيقي، وأكبر فنان، والغرب يتحدى العالم بأضخم ناقلة، وأقوى صاروخ، وأقدم جامعة، وأعظم اختراع، العربي مهموم بثوبه وجزمته ونظارته وساعته، والغربي مهموم بدوامه وإنتاجه واكتشافه ودراسته، عند العرب سباق للهجن والخيول والصقور، وعند الغرب تسابق في الكيف والنوعية والتصدير والإنتاج، تسمع عند العرب هدير العرضة والرقصة والدبكة والسامري، وتسمع عند الغرب هدير المصانع والمعامل والميراج والهوك والأباتشي. وهذا لا يعني أني أتمنى حياة الغرب، فوالله الذي لا إله إلا هو إن الأعرابي أي البدوي الساكن بخيمة في الصحراء، وهو يعرف ربه ويتبع رسوله ويصلي خمسه أفضل عندي من مليار من وزن الرئيس الأمريكي ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

إنشاء جامعة الحياة الزوجية

نحـن في حاجة إلى جامعة الحياة الزوجيـة، يُدَرَّس فيها فن تعامل الزوج مع الزوجـة، والزوجة مع الزوج، ويُدَرَّس مواد عن الحياة الزوجية، وأساليب التعايش الأسـري، يقوم بتدريس هذه المواد معلمون ومعلمات، عندهم خبرة واسعة وتجربة طويلـة في حسن العشـرة، ولديهم التخصص في حل المشـكلات الزوجية، وتكون هنـاك دورات للشبـاب والشابات قبل الزواج؛ حتى يتعلـم الجميع الحياة الزوجية الراشدة على نور من هدي الإسلام، والتجارب الصحيحة الناضجة في هذا الباب، حينها لا يتزوج الفتى والفتاة إلا بعد معرفة تامة بكيفية التعامل، واحترام المشاعر، وأداء الحقـوق، حينهـا تنتهـي غالـب مشكلاتنا الأسريـة، ومآسينـا الاجتماعية؛ كقضيـة الطلاق والهجر والشقـاق والغضب وإهمال الأبناء وسـوء التربية ونحوها من المعضلات.

قرأت كُتُبًا غربية في هذا الباب، فإذا كثير من أفكارها موجود عندنا في ديننا الحنيف، لكنها لا تُفَعَّل لدينا في حياتنا، وبقيت رهينة الكتب، فحصل عندنا عنف اجتماعـي وأسري، وقسوة وتنافـر في الحياة الزوجية، تنتهـي بالفراق والطلاق، وتهـديم الأسـرة وضياع الأبناء، وإبطـال مشروع الزواج وهـدم مقاصد البيت في الإسلام، ووعظ الناس وعظاً شفوياً لا يكفي في تطبيقهم وامتثالهم للأفكار الراشدة والعلـوم النافعة؛ بل ينبغي أن يكون هنـاك تدريب عملي وتطبيق ميداني، مثل من يأخذ دورات في الخطابـة والإدارة والتجارة، وفي كتاب (قوة الصبر) للكاتبة (أم جيه رايان) ذكرت أن مجموعة من الطلاب متوسطي الذكاء تدربوا على الصبر، ومجموعـة أخرى عباقـرة لم يتلقوا تدريباً على الصبر، ثم تزوج الجميع فوجد أن نسبـة الطلاق عند من تَدرَّب على الصبر نسبة ضئيلة، أما عند العباقرة الذين لا يملكون صبراً فقد ارتفعت النسبة إلى خمسين في المئة. نحن نحتاج إلى تمارين في الحياة الزوجية قبل الزواج، حتى نأتي إلى بيت الزوجية ونحن على أتم الاستعداد

للتعامل مع الأحداث الطارئة فيه. ليس الزواج مشروع بناء فيلا ولا شراء سيارة، ولا العمل في مزرعة، إنما الزواج قضية إنسانية، وعبادة ربانية، ومهمة كبرى؛ لأن فيه تكوين أسرة، وبناء جيل، وعمارة أرض، يوجد لدي رسائل جمعتها من الندوات والمحاضرات والقنوات الفضائية والإنترنت لشباب طلقوا زوجاتهم لأسباب تافهة سخيفة، ثم ندموا وتحسروا، ولو أنهم عرفوا الحياة وتعلموا فن التعامل مع الزوجة لما أقدموا على هذا القرار السيئ.

نريد من جامعة الحياة الزوجية أن تجمع لنا نصوص الوحي، وتجارب الأمم، ومعارف الإنسانية في هذا الباب، ويقوم الأستاذة بتدريسها للطلاب والطالبات وامتحانهم في هذا الباب. إن الدابة لا تعلف في أسفل العقبة، وإنما تعلف قبل أيام، وإن الحياة الزوجية لا تصلح للأوغاد الأغمار قليلي التجربة ناقصي العلم والعقل؛ لأن بعضهم يعيش في مثاليات وخيالات، فيشترط شروطاً في زوجته لا توجد في فاطمة بنت سعيد بن المسبب، ولا في سكينة بنت الحسين، ولا في زبيدة زوجة هارون الرشيد!! وتجده هو أحمق من هبنقة، وأبخل من مادر، وأجبن من أبي حية النميري، وأبشع منظراً من الحطيئة، لماذا لا نعيش بشريتنا وواقعنا، ونعترف بأخطائنا، ونبدأ بإصلاح أنفسنا، ونعلم أن زكاة الغنم الأجرب إنما هي بشاة جرباء منها، وكما قال ابن الوردي:

كلُّ أهلِ العصرِ غمرٌ وأنا
منهمُ فاتركْ تفاصيلَ الجملْ

وإذا فتحنا جامعة الحياة الزوجية فسوف ننهي ٧٠٪ من حالات الطلاق، والمشكلات الأسرية، وسوف نقفل ملفات السب والشتم واللعن والضرب والصياح والنواح والضجيج والصجيج في البيت، وسوف نأتي إلى الحياة الأسرية وعندنا علم نتعامل به، ودربة نواجه بها الأخطار، ومعرفة عميقة نتصرف بها أمام أحداث البيت، مشكلتنا أننا نتعلم فن الطبخ والنفخ، والتزلج على الثلج، وصيد الأرانب والحمام، وجمع الطوابع والمراسلة، ولكننا لا نتعلم قضية كبرى اسمها الحياة الزوجية.

الحضارم وصناعة النجاح

قصة الحضارم في صناعة النجاح يجب أن تُدَرَس، وأن يوقف معها طويلاً، لأنها أصبحت أسطورة وظاهرة، وقد قامت بعض القنوات مثل قناة العربية في برنامج (هجرة الحضارم) بإلقاء الضوء على هذه القصة المذهلة المدهشة للحضارم، وهم يصنعون مجدهم بجدهم وكدحهم وكفاحهم وعرقهم وتضحياتهم، وقد انبهر علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر في مقدمته لتاريخ حضرموت للسقاف من هذا النجاح الحضرمي، ولا أعلم طائفة هاجرت من بلادها فصاروا نجوماً ورموزاً في بلاد غيرهم إلا الحضارم، حتى ابن خلدون أسرته حضرمية، هاجرت إلى تونس، فكان هذا العلامة العبقري، وامرؤ القيس قائد الشعراء أصوله من كندة من حضرموت، والمتنبي الشاعر الأسطورة كندي، قبيلته من حضرموت، ولهذا كتب فيه العلامة السقاف كتابه الرائع الماتع (العود الهندي في شرح مجالس الكندي) يقصد المتنبي، وقد انتشروا في كثير من الدول؛ فكانوا هم الوزراء والسفراء والتجار الكبار، وتركوا بصماتهم في كل أرض نزلوا فيها، ومن منا لا يعرف نجومية محمد بن لادن، ومحمد حسين العمودي، وابن محفوظ، وغيرهم كثير.

لماذا لا يدرس شبابنا قصة الحضارم في الإصرار والاستمرار والهمة والطموح، بدلاً من جلوسهم في المقاهي، يتناولون السيجار والشيشة، ويلعبون الورقة، ويقضمون الفصفص؟ دخلت دولاً فإذا بنوك بكاملها باسم رجال أعمال حضارم، يدخل الحضرمي راكباً بأجرة في سيارة عادية، فيكدح ويعمل وينتج، ثم يُنشئ بنكاً، ويتنقل بطائرة خاصة يملكها، ويوظف أهل البلد الذين نزل عندهم ضيفاً، فيصبح هو رئيسهم؛ لأنه لم يأخذ المجد بالنوم والأماني وأحلام اليقظة والتسويف، بل بالعزيمة والحزم والمواصلة والمثابرة، وقد ذكر العلامة السقاف في تاريخه المدهش (إيدام القوات في تاريخ حضرموت) قصصاً رائعة في نجاح الحضارم إلى درجة أن يهاجر حضرمي من بلده إلى الهند وهو فقير، ثم يعود ورأس ماله أكياس من الذهب وخمسٌ وعشرون سفينة تعبر البحار.

ومن شغفي بتاريخ الحضارم زرت حضرموت قبل فترة مع طلبة علم ورجال أعمال سعوديين، ووصلنا (سيؤن والمكلا) علّنا نكشف سر العبقرية والنجاح، هل هو في تراب أرضهم؟ فإذا هو تراب مثل ترابنا، أهو في مائهم؟ فإذا الماء واحد، لكن وجدناه في القلوب الحية، والهمم العالية، والنفوس الكبيرة، والطموح الجبار، والعزيمة الهائلة.

لقد برع الحضارم في العلم والأدب والمال والسياسة والفكر والتواضع وهمة النفس وحسن الخلق، ولئن تحدث الناس عن اقتصاد الحضارم وترشيدهم للمال، فلقد قرأت قصصاً وعشتها عن بذلهم؛ تُذكرك بكرم حاتم الطائي؛ فبعضهم عمّر مئات المساجد، وآخر حفر مئات الآبار للمساكين، وثالث أوقف عقاراً واسعاً في سبيل الله.

شكراً للعبقرية الحضرمية، وبارك الله في تلك النفوس الكبيرة، التي أخرجت امرؤ القيس والمتنبي وابن خلدون وباكثير ومحمد بن لادن ومحمد العمودي وابن محفوظ وبالبيد وبقشان وباخشب وباعشن وبادريق وباسمح وغيرهم كثير.

وأرجو من الإخوة الحضارم أن يخبرونا بكلمة السر في نجاحهم، وأن يدلونا على مفتاح التميز والتفرد في مسيرتهم، وأن يرشدونا إلى البيت الذي جعلهم نجوماً في العلم والاقتصاد والسياسة والأدب والفكر، حتى نخبر بذلك الخاملين والنائمين والمحبطين والكسالى أهل التسويف والأراجيف والشائعات والتردد، يحق لمدفعية المجد أن تطلق إحدى وعشرين طلقة احتفاء بالحضارم؛ لأنهم حققوا النجومية في عالم الطموح، والألمعية التي وصلوا إليها بجهادهم وبذلهم وتعبهم وسهرهم.

من تلقَ منهم تقلْ لاقيتُ سيدَهم

هم الحضارم فانزلْ في مرابعهم

مثلُ النجومِ التي يسري بها الساري

صِيدٌ بهاليلُ حفَاظون للجار

خطباء وأئمة عذّبوا الناس

يقول ﷺ: «**يا أيها الناس إن منكم منفّرين، فأيكم أمَّ الناس فليتجوّز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة**» متفق عليه، وغضب ﷺ على معاذ بن جبل لما طوّل بالناس في الصلاة، وقال: «**أفتان أنت يا معاذ؟**» ثلاثاً، أخرجه الشيخان، وقد ابتلينا في عالمنا الإسلامي بأئمة وخطباء للمساجد عذبوا الناس بجهلهم بالشريعة الميسّرة، والسُّنة السمحة، فمنهم من حوّل التلاوة في المسجد إلى نواح كربلائي حسيني، ومنهم مَنْ يصرخ في الميكرفون إذا كبرَّ صراخاً لو سمعته الحامل لأسقطت جنينها، ومنهم من حوّل التلاوة إلى مقامات حجازية، ومنهم من قلب الدعاء في التراويح إلى خطب منبريّة وإلى حكايات عن الأموات وعجائب وغرائب عن أهل القبور، فهو يصف حالهم منذ أن ماتوا، فغُسِّلوا فكُفِّنوا فصُلّي عليهم، فدُفِنوا فغُطّوا بالتراب، فأكلهم الدود، فوزِّعت ثرواتهم، وقُسّمت تركتهم، وتزوجت نساؤهم، وتيتّم أطفالهم، ونسي المسكين الدعاء لهم بالرحمة.

ومنهم من دخل في تفصيل التفاصيل في الدعاء، فدعا لفلسطين، والعراق، وأفغانستان، والشيشان، والصومال، والبوسنة والهرسك، ومسلمي الفلبين، وجبهة مورو، ومسلمي تايلاند، ومسلمي كوسوفو، وأهالي دارفور، وجزر الملوك، حتى نام الناس وهم وقوف. ومنهم خطيب حوّل خطبة الجمعة إلى مقامات الحريري مع السجع والتّكلف والتعسف والتمطيط والتفحيط (والتعشيق بالدّبل) مع الشهيق والزفير وإخراج الحرف من آخر الحلق، بل من الجوف، فيقول مثلاً: أيها المسلم عليك الرضا بالقضا، على جمر الغضى، ونسيان ما مضى، فما قضى قد انقضى، ثم يعجبه حرف آخر فينشب فيه، فقلّدته في مقامات القرني فقلتُ: إن اليهود وقعوا في غلطة، وسقطوا سقطة، وصاروا في ورطة، لما زادوا نقطة، قيل لهم قولوا: حطة، فقالوا: حِنطة، ومنهم من زاد: فمن قطَّ قطّة، فليشترِ بطّة، وليأخذ شطة. ويضعها في شنطه وغالب جمهوره من النيجيريين وساحل العاج

وإندونيسيا وطاشقند وتركمانستان وأبخازيا وجورجيا، وهناك خطيب تحتاج إلى قاموس لتفهم مفرداته، فهو يقول: إن دستور الأخلاق يقوم على الوسط، بلا وكس ولا شطط؛ ليكون على أحسن نمط، وخطب خطيب عن إنفلونزا الطيور أربعين دقيقة، وخلص إلى أنها مؤامرة عالمية على المسلمين!! فحمدنا الله على نعمة العقل، وخطب خطيب في قرية عن الغزو الفكري وطوفان العولمة، وأهل القرية لا يعرفون نواقض الوضوء، وخطب خطيب في البادية عن عملية السلام والتطبيع مع إسرائيل، وأقسم أنه لا يقبل بالدنية ولن يتم هذا الأمر، ومثل هذا الخطيب يُبرك على صدره، ويُقرأ عليه آية الكرسي، ويكوى ثلاث كيات، حتى يشفيه الله مما أصابه، وغالب الخطباء يقرؤون من أوراق صوّروها من الكتب أو سحبوها من النت، فتأتي خطبهم باردة مثلّجة سخيفة سامجة هزيلة، ميتة؛ لأنها بلا روح ولا تأثير ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾.

وصلينا خلف إمام صلاة الفجر فقرأ سورة: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فمدّ نون ومطّها، حتى كادت أزرار ثوبه تتقطّع، وما انتهى من الصلاة حتى عذّبنا وشق علينا، فكلّمته بعد الصلاة، وقلت له: أنا صليت خلف الشيخ ابن باز والشيخ ابن عثيمين، وهما عالما العصر وأتقى وأورع منا وأعلم منّا، فكانت صلاتهما يسيرة خفيفة لطيفة، وتلاوتهما سهلة ميسّرة، بلا تشدق ولا تنطع، وفهمت من جوابه: أن مَنْ لم يعجبه أن يصلي معه فليصلِّ في مسجد آخر!! وهناك إمام يصلي بعشرة خلفه ومكبرات الصوت على رؤوسهم، فيرفع صوته إلى النهاية، ويصرخ بالتكبير صراخاً، وينوح بالتلاوة نياحاً، وما أدري ما السر وراء ذلك، ويروى أن مؤذناً نفخ في الميكرفون بقوة فاحترق الجهاز والبطارية، وكادت الكهرباء أن تضرب بشررها، فتحترق الحارة ثم المدينة، والله المستعان، هذا قبل أن يؤذن فكيف لو أذّن؟!

والواجب على القائمين على أمر الخطباء والأئمة أن يفهموهم السُّنة، فإن الرسول ﷺ قال: «**إن قِصَرَ خطبة الرجل وطول صلاته مئنة** (أي علامة) **من**

فقهه» رواه مسلم، والأحسن والأجمل أن لا تزيد خطبة الجمعة في هذا العصر عن ربع ساعة، وأن تكون مركّزة في موضوع واحد بأسلوب سهل جميل واضح ميسّر، بلا تعذيب ولا تعنيف، ولا تعسف، ولا تكلّف، ولا تعمق، ولا تشدق، ولا تفيهق، وخير الهدي هدي رسول الله ﷺ الذي قال عنه ربه: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ وقال هو ﷺ: «**إن الدِّين يسر**»، وقال ﷺ: «**هلك المتنطّعون والمتعمقون والمتشدقون والمتفيهقون**».

أنقذوا النساء والأطفال

اطلعتُ على قضية حصلت لطفل في الخامسة من عمره فارق أبوه أمه، وتزوج امرأة أخرى، ثم تسلّط هذا الأب الظالم على الابن، فعذبه سوء العذاب، وجلده ونكّل به، وتركه جلداً على عظم، دخل عليه مرة وهو نائم مع إخوانه من أبيه، فسحبه برجله حتى أخرجه من غرفة النوم، وترك في جسمه كدمات وآثاراً مبكية، وضج الجيران بالتنكيل على هذا الأب القاسي الفظ الغليظ، وكلمتُ هيئة حقوق الإنسان بالرياض فوعدوا خيراً، وأخشى أن ينتقل هذا الطفل إلى الآخرة قبل أن يبتوا في الموضوع.

وداخلنا في قناة اقرأ الفضائية في برنامج (السلام عليكم) امرأة أبكت المشاهدين لما وصفت حالها مع زوجها، فقام هذا الزوج العُتُل الجافي المارد بتعذيبها، وكسر يدها مرة من المرات، ومرةً جرّها من شعر رأسها حتى أخرجها من البيت، ومرةً أخرجها من المنزل وأغلق الباب وتركها ليلة كاملة في الشارع، وحَكَمَ القضاء عندنا مشكوراً بإعدام جبار عنيد عذّب ابنته الطفلة الصغيرة حتى ماتت، وتفنن أبٌ ظالم في تعذيب ابنه حتى علّقه ليلة من الليالي برجليه منكوساً بسقف الغرفة حتى الصباح!!

وأعرف قصصاً لأناس يدّعون الإسلام ويتشدقون بالفضائل، وهم وحوش في صورة بشر، نكّلوا بأبنائهم وبناتهم وعذّبوا زوجاتهم، وقد طُمست معالم إنسانيتهم، وذهبت الرحمة من قلوبهم، وتحوّل الواحد منهم إلى وحش كاسر، لا يردعه دين ولا يحميه خُلُق، ولم يجد مَنْ لم يكسر شوكته، ويوقفه عند حده؛ لأن هذه القضايا في الغالب لا تُرفع للقضاء، ولا تُعرض على السلطة، وجزاء هؤلاء الجبابرة الأوغاد أن يُسحبوا إلى المحاكم مقيدين بالسلاسل، حتى ينالوا الجزاء الرادع، وبسبب هؤلاء المردة العتاة القساة الجفاة يُمنع القطر من السماء، وتجدب الأرض، وتموت البهائم، وتذبل الأشجار، وفي حديث قدسي يقول الله عز وجل عن الظلمة: «**وعزتي وجلالي لولا شيوخ رُكّع، وأطفال رضّع، وبهائم رُتّع، لخسفتُ بكم الأرض خسفاً**».

متى تأخذ العدالة مجراها لتأخذ هذه الوحوش البشرية؟ متى نشاهد السياط الشرعية تهوي على ظهور هؤلاء الجبناء القتلة المتلاعبين بالدِّين والقيم؟ هل يُعقل أن يوجد في العالم من يعذب طفله في الخامسة من عمره إلى درجة الموت؟ إن البهائم تحنو على أولادها، إن الناقة تحنُّ إلى حوارها، وإن البقرة تحنو على عجلها، وإن الحمامة تشفق على فراخها، لكن الذئاب البشرية والنمور الكاسرة من بني الإنسان سُلبت من قلوبهم كل آثار الرحمة والشفقة والحنان فتحولوا إلى نقمة على أهلهم وذويهم والمجتمع بأسره.

وهؤلاء الأشرار ينبغي أن تردعهم القوة العادلة، وأن تطالهم السلطة الشرعية، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. وهذا عمر بن الخطاب -الفاروق- تدخّل أكثر من مرة مع أطفال مضطهدين وضعفاء مقهورين ومساكين مظلومين، فأنزل العقاب بالظلمة، وخوّفهم بعدله وكسر عنفوانهم بهيبته؛ لأن من أمن العقوبة أساء الأدب. بل تطور الحال ببعض هؤلاء الفجرة إلى ضرب وتعذيب آبائهم وأمهاتهم، ومنهم من قتل أباه وجلد أمه وخرج من إنسانيته، وتبرأت منه الفضيلة، وفارقته الرحمة، وحُرم التوفيق، وحلّ به الخذلان مع غضب الله، يا مسلمون نحن بحاجة ماسة لوقفة صادقة مع المظلومين والمضطهدين، خاصة من صنف النساء والأطفال، الذين لا يملكون حولاً ولا قوة، وإنما يدافع أحدهم بدمعه وزفراته وحسراته وآهاته، وويل لهؤلاء الظلمة من يوم عظيم ينتظرهم، حيث لا حاكم إلا الله، ولا قاضي إلا الله، ولا محاسب إلا الله:

إذا جار الوزيرُ وكاتباه
وقاضي الأرض أجحفَ في القضاءِ
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ
لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾.

المرأة في المزاد العلني

ظلمت المرأة عند الجهلة في مالها ثلاث مرات: مرة قبل زواجها يوم كان أبوها الجاني، وأخوها القاطع يحاسبانها في آخر كل شهر على راتبها، ويقتران عليها بالنفقة. وظلمت مرةً ثانية من زوج بخيل شحيح تسلط على مالها وحرمها حرية التصرف في ما تملكه، فصارت تنفق عليه، وهو يقابلها بالفظاظة والغلظة وصنوف الإيذاء. وظلمت مرة ثالثة لما طلقت فمنعت من أبسط حقوقها المالية، فخسرت المال والزوج والأطفال والبيت والحياة الأسرية، وبسبب مال المرأة مُنِعَتِ الكثيرات من الزواج؛ لأن الأب الشرس الكنود الجحود أراد أن يبقيها في بيته، ليستفيد من دخلها الشهري، حتى ذهب شبابها وصارت عانساً، والمرأة مظلومة عند الكثير من القساة الجفاة الجهلة بالشريعة. إن تأخر زواجها لسبب من الأسباب الخارجة عن إرادتها قالوا: عانس حائرة بائرة ولو أن فيها خيراً لتزوجت، وإن طُلقت قالوا: لو أن عندها بعد نظر، وحسن تبعُّل، وجميل خُلق، لما فارقها زوجها، وإن رُزقت كثيراً من الأبناء والبنات قالوا: ملأت البيت بالعيال، وأشغلت الزوج بالأطفال، وإن لم ترزق ذرية بأقدار إلهية، قالوا: هذه امرأة عقيم لا يمسكها إلا لئيم، والبقاء معها رأي سقيم، وإن تركت مواصلة التعليم وجلست في بيتها تشرف على أولادها قالوا: ناقصة المعرفة، ضحلة الثقافة، رفيقة جهل.

وإن واصلت التعليم وازدادت من المعرفة قالوا: أهملت البيت، وضيعت الأسرة، وتجاهلت حقوق زوجها، وإن لم يكن عندها مال قالوا: حسيرة كسيرة فقيرة، أشغلت زوجها بالطلبات وكثرة النفقات، وإن كان عندها مال وأرادت التجارة والبيع والشراء قالوا: تاجرة سافرة مرتحلة مسافرة، لا يقر لها قرار ولا تمكث في الدار، عقت الأنوثة وتنكرت للأمومة، وإن طالبت بحقوقها عند زوجها وأهلها قالوا: لو أن عندها ذوقاً وحسن تصرف لنجحت في حياتها الزوجية، ولكنها حمقاء خرقاء، وإن سكتت فصبرت على الظلم ورضيت بالضيم، قالوا: جبانة

رعديـدة، لا همة لديها، ولا حيلة في يديها، وإذا ذهبت إلى القاضي ورفعت أمرها للحاكم قالوا: هل يعقل أن امرأة شريفة عفيفة تنشر أسرارها عند القضاة، وتشكو زوجها وذويها عنـد المحاكم؟ أين العقل الحصيف؟ وأين العرض الشريف؟ وإنما يحصل هذا الظلم والإقصاء والتهميش للمرأة في المجتمعات الجاهلة الغبية، فهي عندهم من سقط المتاع، ومن أثاث البيت تُورث كما تورث الدابة، ويُنظر إليها على أنها ناقصة الأهلية قليلة الحيلة ضعيفة التكوين، تحتاج إلى تدبير وتقويم وتوجيه وتهذيـب وتعزيـر، بل بعض المتخلفـين الحمقـى لا يذكرها باسمهـا في المجالس، بـل يعرض ويلمـح ويقول مثلاً: (المكلـف)، (والحرمة)، و(المـرأة أكرمكم الله)، و(راعيـة البيت)، لئلا يفتضح بذكر اسمها. وهـذه غاية النذالة، ونهاية الرذالة، وهـي مخلوق كريم، وجنـس عظيم، فالنسـاء شقائق الرجال، وأمهـات الأبطال، ومدارس المجد، وصانعات التاريخ، وشجرات العز، وحدائق النبل والكرم، ومعادن الفضل والشيم، وهـن أمهات الأنبياء، ومرضعات العظمـاء، وحاضنات الأولياء، ومربيات الحكماء.

فـكل عظيم وراءه امرأة، وكل مقدام خلفـه أم حازمة، وكل ناجح معه زوجة مثابرة، فهنّ مهبط الطهر، وميلاد الحنان والرحمة، ومشرق البر والصلة، ومنبع الإلهـام والعبقرية، وقصـة الصبر والكفاح، فلا جمال للحياة إلا بالمرأة، ولا راحة في الدنيـا إلا بالأنثـى الحنـون، فـآدم لم يسكن في الجنة حتى خلـق الله له حواء، ورسولنـا ﷺ هو أبو البنات العفيفات الشريفات، ذرف من أجلهن الدموع، ووقف لأجل عيونهن في الجموع، وسجّل أعظم قصة من البر والإكرام والاحترام والتقدير للمرأة: أماً وأختاً وزوجةً وبنتاً، فيا أيها المتنكرون لحقوق المرأة، لقد ظلمتم القيم وعققتـم الفضيلة، وجهلتم الشريعة، ونقضتم عقد الوفاء، ونكثتم ميثاق الشرف، فأنتم خاسرون لأنكم ناقصون، ناديتم على أنفسكم بالجهل والغباء، وحكمتم على عقولكم بالتخلف والحمق، فتباً لمن ظلم المرأة، وسحقاً لمن سلبها حقوقها.

أهلا وسهلاً بباراك أوباما

يقول الله تعالى لعباده المؤمنين: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ وقد حياكم أيها المسلمون الرئيس الأمريكي باراك أوباما بتحية الإسلام فردوا عليه التحية، لقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون طاغية زمانه، فقال لهما: ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾، وقد أتانا رئيس أعظم دولة في العالم إلى دارنا، وقال لنا قولاً ليناً، مع العلم أنه يتكلم من مركز قوة، فهو ليس رئيس جامعة ولا مدير شركة ولا عميد كلية، إنه صاحب القرار الخطير في العالم، والشاعر العربي يقول: لا تعاند من إذا قال فعل.

لقد قدّم لنا باراك أوباما خطاباً جميلاً فيه من الذكاء واللباقة واللياقة والكياسة الشيء الكثير، بخلاف سلفه بوش المملوء صلفاً وكبراً وطيشاً وعتوّاً، ولقد قدّم باراك أوباما شهادة حق أمام العالم لم يقلها رئيس أمريكي، فذكر عظمة الإسلام، واستشهد بالقرآن أكثر من مرة، ورد السلام على رسولنا وعلى موسى وعيسى عليهم السلام، وشهد بأننا كنا أعظم من قدّم جهوداً للعلوم والفنون كالطب والجبر والهندسة، وأننا صنعنا حضارة إسلامية عظيمة استفاد منها البشر، وأنه ليس في حالة حرب مع الإسلام بل في شراكة، وأن المسلمين جزء من أمريكا، ودعانا لنسيان الماضي، وطالبنا بالحوار والتسامح وفتح صفحة جديدة، وأن لا نكون سجناء الماضي.

فأي عقل هذا وأي منطق هذا؟ وأي خطاب هذا؟ وقارنت هذا الخطاب بخطابات الأنظمة القمعية الثورية العربية التي ما جرّت لبلادها إلا الدمار والحروب والهزائم، والتي يقول ثوارها في خطاباتهم: باسم الشعب بدل باسم الله، وسوف نرمي إسرائيل في البحر، وليخسأ الخاسئون، وقائمة من الشتائم والصراخ والهذيان، التي لا يقولها إلا معتوه أو ثَمِل، لقد اختار باراك أوباما مفردات خطابه بعناية، فلم يجرح مشاعرنا، بل تصرف في رحلته وخطابه تصرف أكبر مسؤول في العالم، فهو بدأ بالرياض عاصمة مهد الإسلام، وثنى بالقاهرة ملتقى الحضارات وأم الثقافة العربية، ومدَّ يده للعالم الإسلامي، وأيد دعوة خادم الحرمين الشريفين لحوار الأديان، فما هو اللائق بنا أمام هذا الموقف؟

إن على عقلائنا وصنّاع القرار فينا وأهل الرأي والقلم أن يجيبوه بخطاب رشيد سديد، ملؤه الحكمة والرفق واللين، وأن يشكروه، وأن يشجعوه على تنفيذ ما وعد، وأن يمشوا معه خطوة بخطوة، أما خطابات التنديد والوعيد وسوء الظن به، واستهجان ما قال، فهو منطق فج أهوج أعوج، لماذا نخاف من المصارحة والحوار والمكاشفة، التي دعا إليها باراك أوباما؟ لماذا نخجل ونتوجس ونشك، ونحن أصحاب رسالة، ولدينا حجة، ومعنا كتاب، ونحن أصحاب حق، وقد قدّمنا أعظم حضارة، وفينا عقلاء وعلماء وراشدون؟ لماذا نقابل اللين بالفظاظة؟ والرفق بالعنف؟ والبشر بالعبوس؟ والوعد الجميل بسوء الظن؟ إن بعضنا يريد من باراك أوباما أن يوافقنا في كل ما نريد، ونسوا أنه في الأخير أنه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ثم أين استلهام سيرة المعصوم رسول الهدى ﷺ في باب السياسة، أما ذهب بنفسه إلى اليهود في دورهم وخاطبهم خطاباً ليناً؟ أما أكل طعامهم؟ أما استضافهم في بيته وكذلك النصارى؟ بل أمره ربه أن يعطي عابد الوثن فرصة السماع والحوار، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

لماذا نغلق أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا؟ لماذا لا نواجه الحقائق؟ لماذا نهرب إلى الظلام؟ لماذا لا نأخذ ونعطي، ونحاور ونناور، ونجامل ونجادل؟ أما كفانا ما فعل بنا سلفه بوش يوم احتل أرضنا، وقتّل أطفالنا، ودمّر منازلنا، واستهتر بقيمنا، وجرح مشاعرنا، ووضعنا جميعاً في قفص الاتهام؟ فلما أزاله الله وأراح العالم منه، وجاءنا رئيس مثقف عاقل، له أصول في الإسلام، ومعرفة بالتاريخ، وقدم في الكياسة، ومذهب في الرفق، ومشروع للحوار والمصارحة، رد بعضنا: لا نسمع ولا نعي، ولا نأخذ ولا نعطي، لأننا مصابون بعقدة المؤامرة، بل هدده بعضنا فذكّرونا بقول جرير:

زَعَمَ الفَرَزدَقُ أَن سَيَقتُلُ مِربَعاً
أَبشِر بِطولِ سَلامَةٍ يا مِربَعُ

بل نقول لباراك أوباما: «وش ها الساعة المباركة يابو حسين؟ مرحباً ألف».

أعداء النجاح

إذا ألّفت كتاباً ولم يحصل له أثر واحتفاء واستقبال، فاجمع نسخه مباشرة وأوقد عليها ناراً عظيمة، واطبخ عليها جملاً وتصدّق بلحمه على الفقراء، إذا افتتحت صحيفة ولم تسمع لها رجة وصجة وضجة، فأرجوك حوِّل مبناها إلى فرن لبيع التميس، إذا أنشأت قناة فضائية ثم لم تخض الماء الراكد، وتنبه الراقد، وتهز الهامد، فأوقفها واستفد من أجهزتها في التصوير الفوتوغرافي وتغطية حفلات الزفاف، إذا نظمت قصيدة ولم يحصل لها مدح أو ذم أو رضا أو سخرية، فقصيدتك من تمائم الشيطان وحروز المشعوذين والكهنة وليست شعراً، إذا عشت حياتك وليس لك أثر طيب وجهود مثمرة، ولم يوجد لك مادح وقادح ومحب وحاسد، فأنت زيادة في عدد السكان، تساهم في أزمة الغذاء والبطالة وإتلاف البنية التحتية، المشروع الفاشل، والكتاب الأجوف، والقصيدة المخصيّة، والقناة النائمة، والصحيفة المشلولة، والإنسان الصفر أموات غير أحياء ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾.

قال مصطفى أمين: إذا قمت بعمل ناجح وبدأ الناس يلقون عليك الطوب، فاعلم أنك وصلت بلاط المجد، وأصبحت المدفعية تطلق إحدى وعشرين طلقة احتفاء بقدومك، إن الأعمال الناجحة لها دوي وصخب ورجفة وزلزال، كما قال أبو الطيب:

وَتَركُكَ في الدُنيا دَوِيّاً كَأَنمَّا
تَداوَلُ سَمعَ المَرءِ أَنمُلُهُ العَشرُ

إذا خرج العمل (سكتم بكتم) عرفنا أنه جثة هادمة، فعليك إذا عزمت وحزمت أمرك وشددت حزام الأمان، حتى تسمع صوت مزلاج التضحية والفداء، فاجعل شعارك قول الشاعر:

إذا همَّ ألقى بين عينيه همّه
وأعرضَ عن ذكرِ العواقبِ جانبا

وعليك أن تلبس جلداً كثيفاً سميكاً، مثل جلد التمساح حتى تتكسر فيه سهام الحسّاد، كما قال صديقي وزميلي أبو الطيب:

فَصِرتُ إذا أَصابَتني سِهامٌ
تَكَسَّرَتِ النِّصالُ عَلى النِّصالِ

وعليك إذا سمعت هجوماً كاسحاً على مشاريعك، أن تشرب الشاهي الأخضر، وأن تنشد مع أبي الطيب:

أَنامُ مِلءَ جُفوني عَن شَوارِدِها
وَيَسهَرُ الخَلقُ جَرّاها وَيَختَصِمُ

وعليك أن تلتمس العذر لحسّادك (يا قاهرهم)، وردد مع أبي الطيب:

إِنّي وَإِن لُمتُ حاسِدِيَّ فَما
أُنكِرُ أَنّي عُقوبَةٌ لَهُمُ

وكما قال ابن صقعان بالشعبي:

يا هيه ياللي تظلم الزين يا هيه
ظلمك لزوله زوّدته حلاوه

فكيف إذا كانت الحلاوة عليها طلاوة، وفيها طراوة إذاً صارت بقلاوة، واستمر في مشاريعك الناجحة ولا تلتفت لأحد وكن كمدمرة كول أو كاسحة الألغام، واستمر مع المدح والقدح، كما يقول ذبيح الحق الباكستاني: شوف صديق مادام الله فيه موجود ما فيه مشكلة، معلوم صديق؟ أنت فيه نفر كويس.

واجعل شعارك وديثارك قول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾، خرج

الأسـد يتشمّـس، فقام الفأر يستعرض أمامه ويناوشه، فقـال له الأسد: يا حتحوت يا كتكـوت، والله مـا أريـد أن أنجّس فمي بدمك، وتحـاول طيور الغرنـق أن تشتبك مع الصقـور فترفض الصقور ذلـك، وتحلق عالياً بعيـداً في الفضـاء، لأن اشتباكها مع الطيور اعتراف ضمني بالنديّة والمساواة، والصقور تأبى هذا الاعتراف، بقدر قيمتك يكون النقد الموجّه لك، والتيس الهزيل لا حاسد له، والناس لا يرفسون كلباً ميتاً.

إن كلمـات النقـد، وقصائـد الهجاء، ومقطوعـات القدح، مع باقـات الرضا ومنظومات الثناء لأي مشروع، إنما هي أوسمة على صدر بطل قصة النجاح، فكن كاتـب القصة، ومنتج الفلم، وناظـم القصيدة، وراسم اللوحـة، ومدبِّج الخطبة، ومفتتح المشروع، وإذا لم تفعل فاشتري لك قطيعاً من الضأن، واغرب عنا بوجهك، فـإن المجد مناهبة، والبقاء للأفضـل، والويل للفراش الميت من ﴿نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾.

كُتّاب من الدرجة السياحية

الكُتّاب على أقسام: درجة أولى وأفق وسياحية، وكُتّاب الدرجة السياحية هم المقصودون بالحديث؛ لأنهم في سن التقويم والتربية والتوجيه، ولأنهم براعم شابة، أخشى عليهم من القواصف والعواصف، ونبت صغير أخاف عليه من السيول الهادرة الجارفة، وقد نشأ عندنا في العالم العربي كتّاب صغار (كتاكيت)، وكل كتكوت طار قبل أن ينبت له ريش، فبدأ هؤلاء الكتاكيت، في أعمدتهم بالصحف والمجلات، يصنعون مجدهم على حساب الآخرين، وظن هؤلاء الصغار: أن أقرب طريق للشهرة هي أن تشتبك مع مسؤول، أو تتحرش بوزير، أو تتلابس مع كاتب، أو تهمز شيخاً، أو تلمز أستاذاً، أو تنبذ شاعراً، أو تخمش تاجراً، أو تتسلق حائط جامعة، مع أنهم لم يكوّنوا أنفسهم في عالم الكتابة تكويناً صحيحاً، فما عندهم مفردة جميلة، ولا بيان ساحر، ولا أسلوب آسر، ولا فكرة رشيدة، ولا رأي سديد، فقراءتهم ضحلة، واطلاعهم هش، وتمييزهم ضعيف، واختيارهم هزيل.

والكتابة تأتي بعد قراءة مئات المجلدات، والاطلاع على آلاف الصفحات، وكتابة أكوام كثيرة من الأوراق ثم إتلافها وعدم الرضا عنها، وتسطير مئات المقالات ثم شطبها؛ لأنها ليست بالمستوى اللائق، ولكن بدل أن يبنوا جسور المودة، وينسجوا خيوط المحبة، سلّوا خناجر الانتقام والقصاص والكراهية والثأر والحقد، وغفلوا عن مبدأ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، وقد نصح مصطفى أمين -الكاتب المصري المشهور- الكُتّاب المبتدئين بأن يقرؤوا كثيراً، وأن يدمنوا مصاحبة الكتاب، ولا يقيموا خصومة في المجتمع، ولا يفتتحوا حياتهم الصحفية بنهش الأعراض، وصنع العداوات، لأنهم سيخسرون من أول الطريق، والمستفيد الوحيد هو مَنْ همزوه أو لمزوه أو غمزوه؛ لأنه يزداد شهرة.

وقد وفد أحد الكُتّاب الكبار على عباس محمود العقاد، وشكى إليه ظلم الصحافة، وهجومها على شخصه صباح مساء، فقال له العقاد: أرجوك اجمع لي

كل المقالات والقصاصات التي هاجمتك وشوهت سيرتك وزرني غداً، وفي اليوم الثاني أحضر له ملفات من مقالات الشتم والسب التي كتبت فيه، قال العقاد: اجمعها أمامي ورتبها، فلما أصبحت (كالبلوكة) الكبيرة أو (المسند) المستطيل، قال له العقاد: اصعد لو سمحت عليها، فصعد الرجل وارتفع عن الأرض قليلاً، فقال له العقاد: قد ارتفعت بهذا السب بقدر ما ارتفعت عن الأرض، ولو زادوك سباً لزدت ارتفاعاً، ثم قال له: أما سمعت قول الأخ المتنبي:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كاملُ

فعلى كُتّاب الدرجة السياحية أن يتفرغوا كثيراً للقراءة المثمرة في كتب الأدب ودواوين الشعر، ومصنفات المقالات والمطارحات والمقامات، وأخبار الخلفاء والعلماء والحكماء، وآثار الأدباء والشعراء والوزراء، وأن يكسبوا الثقة بجميل القول وحسن التعامل وسلامة الذوق، والنظر بعين الإنصاف وحب الخير للغير، وعليهم أن يغسلوا نفوسهم المريضة بماء الإيمان والمحبة والسلام والعفو والتسامح، وأن يقتلوا في قلوبهم عقارب الحقد، وثعابين الحسد، وحيّات البغضاء، ووزغ الشحناء، وأن يزرعوا في صدورهم زهور التفاؤل، وخمائل الأمل، وبساتين الرضا، وأن يسقوها بماء الإخلاص، ويظللوها بشجر الصبر، وليستمعوا لقول شاعر الكرة الأرضية المعاصر، حيث يقول في هؤلاء الكتاكيت الفروخ:

يا كتاكيت المقاهي والكتابة

يا فراريج هُديتم للإصابة

اهجروا السبَّ وألفاظ الخنا

إنما يفرح بالجرح الذبابة

وخذوا النصيحة من (عمكم في الله): اصعدوا إلى المجد درجة درجة، وامشوا إلى الريادة خطوة خطوة، ولا تغلطوا غلطة، فتسقطوا سقطة، وتقعوا في ورطة، واقرؤوا لابن المقفع قصة الأسد والبطة.

مفاتيح الجنة ليست في جيوبنا

مـن رحمة الله بنا نحن البشـر أن الله لم يجعل مفاتيح الجنة في جيوبنا، ولو حصـل هـذا كان بعضنا منع البعض الآخر من دخـول الجنة، وكان كل من اختلف مـع شخص طرده مـن الجنة، وكل طائفـة أو جماعة تغلق أبـواب الجنة في وجوه الجماعـات والطوائف الأخرى؛ لأن البشر في الغالب أهل بخل وشح وحقد وحسد، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

وانظر إلينا في الدنيا الفانية الحقيرة القصيرة قد تقاتلنا وتشاتمنا فكيف لو سُلِّمت لنا مفاتيح الجنة؟ فترى البعض منا قد افتتح دكاناً؛ لتكفير الناس وتبديعهم وتضليلهـم، ثم أقسم أنهم لن يدخلوا الجنة، والبعض قد نصب مشانق لعباد الله يجلدهم صباح مساء، فهم عنده آثمون مذنبون مرتدون زنادقة، والبعض قد أقام محاكـم تفتيش لعباد الله، يحاكم نياتهـم وضمائرهم، ويفحص سيرتهم، وينقب في أخبارهـم، وينشـر غسيلهـم، ونسي المسكـين نفسه المدنّسـة بالذنوب الملطخة بالعيوب، والبعض ادعى العصمة له ولطائفته وجماعته، فلا يدخل الجنة إلا هم.

والصحيح أن أهل الجنة هم من حقق اتباع الرسول ﷺ، وذكّرنا هذا بقصة أبـي حمزة الخارجي فإنه لما حج هو وتلميذه وقف عنـد الصفا، وقال لتلميذه: كل هؤلاء الحجاج في النار، ولن يدخلها من الأحياء إلا أنا وأنت، فقال له تلميذه وكان ذكياً: سبحان الله جنة عرضها السموات والأرض لا يدخلها إلا أنا وأنت!! إذاً هذه ليسـت جنة الله التـي وعد عباده، ولـن أدخلها أنا فهي لك وحـدك؛ لأن جنة الله عرضهـا السمـوات والأرض، ولها أبـواب ثمانية، سعة الباب مـن صنعاء إلى بيت المقدس، ويأتي عليه يوم وهو شديد الزحام، فكيف لا يدخلها إلا اثنان؟ وكلما رأيت العدوانية والكراهية من أبناء البشر وطالعت الأحكام الجائرة من الناس على مَن

اختلفوا معه، حمدت الله أن أمر الرحمة والجنة والتوبة والمغفرة إلى الله وحده، إن الحسدة والحقدة وضعاف الأنفس ومرضى القلوب لو كان إنزال الغيث بأيديهم، لما أنزلوه إلا على مزارعهم وديارهم فحسب؛ لأنهم ضاقوا بأنفسهم وبالناس، فهم لا يرون إلا بعيونهم، ولا يفهمون إلا بعقولهم الضيقة، فإذا كان الدليل يسعفهم والبرهان يساعدهم فهو صحيح ثابت، وإذا كان ضدهم فهو باطل منسوخ.

فإذا أحبوا شخصاً كذبوا في مدحه وأجلسوه على النجوم، وإذا أبغضوا شخصاً كذبوا في سبّه ودفنوا محاسنه، إن غالب البشر أعداء للحقيقة، ولهذا تجاهلوا حق الخالق سبحانه، وأعرضوا عن الحجج الساطعة في الأنفس والآفاق وفي الكتب والرسالات، حتى قال خالقهم ورازقهم عز وجل ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وانظر إلى فئات المجتمع كيف يتراشقون بالتهم ويتنابزون بالألقاب، فالمتساهلون في اتباع السنة يرون أن كل ملتحٍ متدين ملتزم أنه متشددٌ غالٍ في الدّين متطرف خارج فظ غليظ، ويرى المتشددون أن المتساهلين بالسُّنة من المسلمين زنادقة وفجرة ومستغربون ومرتزقة، والمفروض أن نجتمع على الإسلام، ونعمر الأرض، ونبني الفضائل، وننتج ونبدع ونخترع ونكتشف، ولكننا صرفنا جهودنا في التطاحن والتشاحن والتفاضح والتقابح، ونسينا التسامح والتصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

وانظر الآن إلى الخارطة من طنجة إلى جاكرتا، فلا تجد إلا الثورات والانقلابات والقتلى والأشلاء والدماء في فلسطين والعراق وأفغانستان وباكستان والصومال، بل أكثر العمليات الانتحارية والتفجيرات والمجاعات والأحزاب والجماعات والرايات واللافتات في بلاد الإسلام؛ لأن الكثير لما جهل دينه الصحيح وترك الاعتصام بحبل الله، أطاع شيطانه ونفسه الأمارة وهواه الغالب، وإلا قولوا لي بالله عليكم! أما أسس أجدادنا أروع حضارة عرفتها البشرية، وقدموا أجمل رسالة استقبلتها الإنسانية؟ لما اعتصموا بحبل الله

واتبعـوا رسوله ﷺ، وآخر من اعترف بها من الكبار الرئيس باراك أوباما، الذي انحنى إجلالاً لعظمة الإسلام.

أيهـا الناس: ارحموا الناس، وتشاغلوا بإصلاح أنفسكم، وتطهير ضمائركم، وغسـل قلوبكم، وتعالـوا نعيد للإسلام مجده، ونقدم للعـالم رسالة عادلة معتدلة حضارية، تليق بديننا العظيم.

من أراد عفو الله فليعفُ عن الناس

أقبل رمضان، شهر الرحمة والغفران، والعفو والرضوان، وسوف ندعو الله جميعاً في كل ليلة بالدعاء الثابت: (اللهم، إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا). ولكن الكثير منا لا يعفو عن إخوانه، فهو يريد العفو من الله، ولكنه لا يستطيع أن يصدر عفواً عمن أساء إليه، والله يعفو عنا، وهو الذي خلقنا ورزقنا وأعطانا وكفانا وشافانا وعافانا، بينما نحن لا نعفو عن البشر، ولم نخلقهم ولم نرزقهم، ولم نطعمهم من جوع، ولم نؤمنهم من خوف، كيف نريد المسامحة من رب العباد ونحن لم نسامح عباده؟ بل تجد عندنا تحفظات على أخطائهم وملفات لزلاتهم، وذاكرة لا تنسى أغلاطهم، والغالب علينا نحن البشر أننا نحفظ الإساءة وننسى الإحسان.

فهل آن لنا في شهر رمضان ونحن نقف في المساجد باكين خاشعين، نطلب من ربنا أن يعتق رقابنا من النار، ولكننا لم نعتق رقاب الناس من تربصنا وتهديدنا ووعيدنا، إذا لم نصدر عفواً عاماً عن عباد الله، ونعفيهم من القصاص والانتقام والتربص، أفلا نخجل من حالنا ونحن نمد أيدينا إلى ربنا، ونقول: ربنا إننا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين، إن من أراد العفو من الله فلا بد أن يهيئ أسباب القبول، فيغسل قلبه من الحسد والحقد والكراهية والبغضاء والشحناء، كيف نأتي إلى المساجد في رمضان بتلك القلوب الممتلئة غيظاً وبغضاً وكراهية لعباد الله، إن تنظيف وتطييب ظواهرنا باللباس والعطور لا يكفي إذا كان تحت هذا الظاهر باطل مشوّه قبيح من الغل الدفين والحسد القاتل والبغضاء المتقيحة، ففي الحديث الصحيح: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»، ماذا ينفعنا لباس فاخر ومظهر خادع، ومراكب فخمة، ومجالس بهية، وموائد شهية، ولكن القلوب التي هي محط نظر علاّم الغيوب، قلوب مريضة مجروحة مليئة بوباء القطيعة والكبر والعُجب والحسد، إن التدين ليس مظاهر وطقوس، ولكنه حقائق ومقاصد وأسرار، مع

التمسك بالسنة ظاهراً وباطناً، عرفنا أناساً قلوبهم كقلوب الطير رقة ورحمة ولیناً وحناناً، يحبهم الله، يحبهم البشر، تحبهم السماء، تحبهم الأرض، فهم في أمن وفي سلامة والناس منهم في راحة وعافية، وعرفنا أناساً غلاظًا شداداً، عذبوا أنفسهم وعذبوا من حولهم شراسة وقسوة وجفاءً وسوء خُلق، فهم في عذاب دائم من نفوسهم المريضة، والناس منهم في مشقة، وهم نكال على آبائهم وأبنائهم وزوجاتهم وأصدقائهم، ضاقوا بأنفسهم وضاقوا بالناس، فضاقت بهم الدنيا.

في أثر حسّنه بعض العلماء (الخلق عيال الله، أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)، فمن عفا عن عباد الله وسامحهم ورحمهم وغفر لهم، عفا الله عنه وسامحه ورحمه وغفر له، ومن ضيّق عليهم وشق عليهم وعذّبهم، شق الله عليه، وضيّق الله عليه، وعذّبه الله، ينبغي أن نأتي رمضان بقلوب صافية سليمة محبة للخير والأمن والسلام والعفو، ولا نأتي رمضان بقلوب متسخة بالضغينة والغش والكره والنفاق. إننا نغسل أجسامنا بمبالغة شديدة إلى درجة الوسوسة، ولكن الكثير منا يغفل عن غسل قلبه الذي مر عليه عشرات السنوات وهو ملطخ بذنوب كالجبال من الاستكبار والعتو والتعالي والخيلاء والبغي والمكر والغدر والفجور، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

إن التدين ليس صوراً باهتة وحركات وإشارات، لكنه مضامين عظيمة، وقلوب واعية، وضمائر حية، وبصائر مستنيرة، وأخلاق مجيدة، وقيم عالية، وسوف نسمع في رمضان في كل مسجد طلب العفو من الله، وهو أمر شرعي ومحبب، ولكن إذا أردنا إجابة السؤال وتلبية الطلب فلنبدأ من الآن بالتصالح مع أنفسنا ومع الناس، والتسامح مع البشر، والعفو عن عباد الله، وإعطاء الناس الآمان من أذيتنا، وفي الحديث: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»، عفا الله عنا وعن جميع المسلمين، وسامحنا الله وسامح كل المؤمنين.

شكراً لمن مدَحَنا ولمن سبَّنا

أقول وأنا صائم في رمضان: غفر الله لي ولإخواني المسلمين والمسلمات، سامح الله من أحبنا وأبغضنا، ورحم الله مَنْ مدحنا وشتمنا، وغفر الله لمن شجعنا ومن نقدنا، فنحن بشر عرضة للخطأ، وأشهد الله أني لا أريد لأحد من المسلمين أن يتضرر ولو بحرارة شمس أو بنزلة زكام، وإنه لا يسعدني أبداً أن أرى مسلماً في مكروه، أو في أزمة كائناً مَنْ كان، وربما كان انتفاعي بمن نقدني أكثر من انتفاعي بمن مدحني؛ لأن من نقدني أخبرني بعيوبي، ودلّني على خطئي، وذكرني بعجزي، فأعدت التقويم في نفسي والملاحظة بعملي، أما من مدحني فإنه قد يكون خدّرني بالمديح، وسكت عن الغلط، فأستمر على وضعي معجباً بنفسي وعملي.

ليس بيني وبين أحد من المؤمنين موقفٌ مسبق، يترصدني وأترصده، ويتربص بي وأتربص به، بل قد يحصل مني التعليقة والمزحة في نفس الموقف على البديهة وعلى الهواء مباشرة دون سابق إنذار، فأعلّق على نفسي وإخواني وأصدقائي وبقية العاملين في الساحة، حتى إني أجد عند الكثير منهم رحابة صدر، وروحاً رياضية، وتسامحاً وعفواً، وأجد عند البعض رداً مؤدباً، فأتفهمه وأستوعبه، ولست -معاذ الله- أقصائياً في أفكاري، بل أدعو إلى التسامح والتواصل ومد الجسور والتعارف والتحاور والتعانق والتلاقي وتطبيع العلاقات، واقرءوا إن شئتم عشرات المقالات لي في هذه الجريدة الرائدة وكثيراً من الدروس والمحاضرات.

بل إن تعاوني مع الأستاذ محمد عبده من باب فتح الآفاق والنوافذ والأبواب على أطياف المجتمع وشرائح الوطن تحت مظلة الإسلام، فأنا والحمد لله أتشرف بزيارة الصحفيين ورجال الإعلام والرياضيين والعسكر والعمال وسائر طبقات المجتمع، لأنني واحد منهم حتى وجدت اللوم من بعض الناس في بعض خطوات هذا التواصل والانفتاح، لكنني أدركتُ بعد أعوام مديدة وتجارب طويلة واطلاع وقراءة وسفر للخارج: أن الواجب علينا أن تكون عقولنا كبيرة وقلوبنا واسعة، وأن

الإنسان لا يبني لنفسه دكاناً، ويتصور أن العالم في دكانه، ولا أن يحشر عقله في زنزانة، ثم يحاكم الناس من زنزانته، وصرت كلما رأيت أي إنسان ولو كان مقصراً أقول في نفسي: من يدري؟ قد يكون أفضل عند الله مني، ويمكن أن يُختم له بخير، وربما بينه وبين الله عمل صالح، وقد تجاوز الإنسان سن المراهقة العقلية، التي كان فيها يطرب لكلمة مدح، ويهش بقصيدة ثناء، ويثور ويغضب من مقالة هجاء أو مقطوعة سب، ورأيت أن العمل المثمر والناجح أنه أفصح جواب وأفضل رد، لأن الكلمات والمقالات والقصائد التي مُدحنا بها لن ترفعنا إلى المجد (سنتمتر واحد)، وأيضاً المقالات والقصائد والكلمات التي هُجينا بها لن تنقص من قدرنا (سنتمتر واحدة) والمقصود إن كان لك عمل جميل وخُلُق نبيل وهدف سام وهمة عالية وطموح وثّاب، فسوف تفرض نفسك حتى على حمورابي وبختنصر والنمرود بن كنعان، وإذا كنت صفراً وكسولاً وخاملاً وفاشلاً واتكالياً، فوالله لو نحتوا اسمك على الأهرامات، ونحتوا لك ألف تمثال لما صدّق الناس ذلك، وعادوا إلى سيرتك وعملك فحسب.

لقد استفدت من مشائخي وأساتذتي والكتب التي طالعتها وتجاربي: أنني إذا حقدت على إنسان فإنني أنا الخسران والنادم والضحية، لأنني سوف أدفع ضريبة هذا الحقد من دمي وأعصابي ونومي وراحتي وحسناتي، أما إذا عفوت عن خصومي ونقّادي وحسّادي فسوف أكسب عفو الله وسروري واستقرار نفسي وهدوء بالي وتكفير سيئاتي، أوصاني أحد العلماء الكبار في الرياض قديماً، فقال: إذا أويت إلى فراشك فسامح كل من أخطأ في حقك، وادعُ له واطلب العفو والسماح ممن أخطأت في حقه، فصرتُ بعدها مسروراً بهيجاً، وقد اتصل بي بعض الإخوة يقرأ عليَّ بعض مقالات السب فأضحك والله وأقول: غفر الله للكاتب وسامحه الله، وكم بقي من العمر أصلاً حتى نتخاصم ونتحاسد ونتقاتل، اللهم اغفر لكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، اللهم سامحنا وسامح من أسأنا إليه أو أساء إلينا، واغسل قلوبنا من الحقد والحسد والبغضاء والشحناء.

بعد الصيام والقيام نام المؤذن والإمام

لا ينتهي عجبي منّا نحن المسلمين وجهلنا بالدّين، في رمضان امتلأت المساجد والساحات المجاورة للمساجد بالناس في صلاة التراويح وهي نافلة وسنة، فلما انقضى الشهر لم يحضر إلا صف أو صفان في الفرائض، بل نام المؤذن والإمام أيام العيد عن الفريضة؛ لأنهم منهكون من صلاة التراويح والقيام النافلتين. نهتم بالنوافل ونهمل الفرائض، نحسّن الظاهر ونهجر الباطن، نقبل على الشكل ونترك المضمون، ومن تجليات الأمة في رمضان، بل من حركات (نص كم) أن الإمام يبكي وينوح ويصيح في دعاء التراويح، فيتحول المسجد إلى نياح كربلائي، بينما إذا قرأ القرآن هذّه بلا خشوع ولا بكاء، ونترك الدعاء بالمأثور الثابت، ونؤلّف من عندنا أدعية سامجة باردة، كقولهم: ولا تدع أعزباً إلا زوّجته، ولا مطلقة إلا جبرت خاطرها، ولا مديناً في بناء عمارة إلا قضيت دينه، وأصلح خالاتنا وعماتنا وصديقات أمهاتنا، ومن له حق علينا. إلى آخر هذا الهذيان.

يذهب الكثير منا بأهله لأخذ العمرة في رمضان، وهو لا يحضر صلاة الجماعة، فيترك أبناءه وبناته شذر مذر في فنادق مكة وأسواقها، وأقسم لي أخ من دولة عربية أنه وفد مع حملة لأخذ العمرة في رمضان، وكثير من الحملة ما كانوا يصلون الفريضة في بلادهم، فصلّوا التراويح في الحرم، وبكوا حتى رثيت لحالهم، فلما جاء العيد عادوا لما نهوا عنه من ترك الفرائض وارتكاب الآثام، في قرية من القرى كان مؤذنهم خفيف الظل ومزّاحاً، ويشكو من قلة المصلين، فكان يحضر معهم الفريضة خمسة، فلما دخل رمضان ملأوا المسجد لصلاة التراويح، ولما آمَّن الإمام أمّنوا فارتج المسجد، فصاح المؤذن يقول: (عاشوا) مستهزئاً بهم، ولما سلموا التفت إليهم وقال مستفهماً: تضحكون على ربي؟ تعالى الله عن ذلك.

وكثير ممن لا يحضر صلاة الجماعة في الفرائض يستعد لصلاة التراويح والقيام، فيحضر مبكراً ويحجز مكاناً ومعهم القهوة والشاي، ويلتفت إلى جيرانه

ويسألهم: هل ختم القرآن في مسجدكم؟ لأن ختم القرآن في المساجد صار معايرة ومغالبة، وأخبرني رجل مسن عامي أنه ذهب بأهله لأخذ العمرة، قال: أبشرك وفّقنا الله، والله ما جلسنا في الحرم إلا ساعتين من قلة الزحام؛ لأننا تركنا الناس وقت دخلوا في صلاة الفجر طفنا وسعينا، وكأنه قصد غفلة المسلمين واشتغالهم بالصلاة، فاحتال عليهم وأدى العمرة.

وكان في حي الجرادية بالرياض إمامٌ قديمٌ أعمى البصر نافذ البصيرة، فغشاه الناس في رمضان غشيان الجراد، فأحس بحركاتهم وأصواتهم، فقرأ في الصلاة آخر الأحزاب: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، يسمعهم إياها، فلما انصرف من صلاته أخذ الميكرفون، وقال: ما شاء الله المسجد اليوم مليان ماذا حصل؟ هل عندنا حفل زواج؟ أثركم تعرفون إن فيه مسجدًا أو رباً يُعبد، لكن نصبر عليكم أياماً معدودة، وبعدها ما نشوف وجوهكم سنة كاملة.

فيا من قتل الحسين وسأل عن دم بعوضة، لا تقدموا النوافل عن الواجبات المفروضه، ولا تحولوا الشريعة إلى فوضى، إن الدّين ليس تظاهرات وطقوسًا وأشكالاً، ولكنه معانٍ ومقاصد وحقائق، وغالب الناس مثلهم كمثل المرأة الغبية الحمقاء، التي لما أخبروها بقتل ابنها برصاصة، سألتهم أين وقعت الرصاصة؟ قالوا: وقعت في جبهته، قالت: الحمد لله على سلامة عينه من الرصاصة، وهو قد قُتل أصلاً، عندنا شغف بالجزئيات على حساب الكليات، والمستحبات على حساب الواجبات، والبعض أكثر من الدروس والمحاضرات في إعفاء اللحية وإسبال الثوب، وشرب الدخان والأغاني، وترك تصحيح العقيدة وإصلاح العبادة وتقويم الأخلاق، وذلك من قلة الفقه وضعف الرأي، أسأل الله أن يفقهنا في الدّين، لنحسن عبادة رب العالمين.